التثاقف من الحوار إلى الاستلاب الحضاري

د/كمال بوغديري
جامعة بسكرة

الملخص :

تتناول الدراسة الحالية ظاهرة التثاقف كظاهرة اجتماعية، شكلت محور اهتمام الكثير من العلوم الاجتماعية خاصة علم الاجتماع والأنثربولوجيا، وعلم النفس الاجتماعي...

هذا الاهتمام كان بالنظر للآثار الخطيرة التي باتت تخلفها على المستويات المحلية والعالمية حيث بات من الواضح أنها في الظاهر تلاقح ثقافي مؤسس على احترام خصوصيات الآخر وكل ما يرتبط بهويته ووجوده، بينما في الواقع ارتبطت بالنظرة الاستعلائية للدول الاستعمارية التي ما زالت تريد تنفيذ مشروعها الثقافي في الدول التي استعمرتها أي تكملة المشروع في إطار ما يعرف بما بعد الكولنيالية، مما يجل هذه البلدان تعيش تحت التهديد الدائم لفقد هويتها الثقافية إذا ما أرادت أن تأخذ نصيبا مما أنتجه الفكر الغربي من أشكال ثقافية معاصرة.

Résumé :

L'étude actuelle, vise a étudier « acculturation » comme phénomène sociale qui a fait partie de plusieurs science sociales, surtout l'anthropologie et la sociologie, psychologie sociale …
il a formé l'objet d'un grand nombre d'étude dans les sciences telle que de la sociologie et l'anthropologie et de la psychologie sociale ...

Cette attention a été accordée aux effets secondaires graves qui a laissés sur les niveaux local et mondial, où il est devenu clair qu'ils ostensiblement un métissage culturel se fonde sur le respect de l'autre et toute chose associer à son identité et son existence, alors qu'en fait, associée aux perspectives des pays coloniaux dominateurs qui veulent encore exécuter un projet culturel dans les Etats colonisés par tout projet de complément dans le cadre de ce qui est connu comme le post-colonialisme, qui vénèrent ces pays vivent sous la menace constante de perdre leur culture identité si elle veut prendre une part, de toutes les formes culturelles contemporaines produite par la civilisation occidentale .

مقدمـــــة:

يعتبر مصطلح التثاقف من بين المصطلحات التي تناولتها أدبيات العلوم الاجتماعية كالانثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي، حيث يعود التعاطي مع هذا المصطلح إلى ثلاثينات القرن العشرين، فهو بحسب "رالف لينتون" و"موسكوفيتس" تعبير عن حالة التناقض القائمة بين القيم الاجتماعية

السائدة والمتوارثة والكامنة و بين حاجة هذه الأخيرة إلى تحقيق التطور المعرفي والثقافي من خلال إقامة جسور معرفية وعلاقات اجتماعية مع الغير، وتلك الحاجة الملحة في امتلاك هوية خاصة ومستقرة غير أنه ومع ظهور القيم والأساليب الثقافية التي فرضتها العولمة بمعنى وجود مجتمع متعدد الثقافات أو البعد العالمي للثقافة وبين هذا وذاك نتجت حالات صراع مختلفة في كثير من المجتمعات وهي وضعية تعيشها الكثير من الشعوب نتيجة عدم قدرتها على التأقلم و التعايش مع الإفرازات المختلفة للعولمة.

وفي عالمنا العربي يلاحظ أن شريحة واسعة من المفكرين والمثقفين تجد أن أحد عوامل التخلف في الذي تعيشه المجتمعات بما في ذلك المجتمعات العربية الإسلامية المعاصر راجع لعدم قدرتها على التفاعل مع مستجدات العصر إنما هو بالدرجة الأولى لضعف عملية التثاقف مع الآخرين، والاكتفاء بالتراث المحلي، الأمر الذي يفسر القطيعة الثقافية بين الشرق والغرب، والفجوة الواسعة التي تفصلهما ولهذا يميل عدد كبير من المفكرين إلى أن عملية التثاقف بين الشمال والجنوب باتت ضرورية ومهمة في الوقت الراهن، حتى يتمكن كلا الفريقين من فهم الآخر والتفاعل معه على أساس خصائصه الفعلية التي تصفه وتبنى على أساسها علاقات إنسانية وتفاعلات وجدانية بين الحضارات، وليس من المتوقع أن تحدث مثل هذه العملية في ظل تصورات غير حقيقية يملكها كلا الفريقين عن الآخر، ولهذا فإن عملية التثاقف بين الغرب من جهة والعرب باتت ضرورة حتى يعرف كل منهما حقيقة الآخر، وليس على أساس التصورات التي نتجت في مراحل العداء والحروب بين الحضارات في الفترات السابقة. إن مصطلح التثاقف يعكس ظاهريا تفاعلا ثقافيا مبنيا على التسامح والاحترام والندية ويستبطن نزعة امبريالية لطالما رغبت في محو الآخر واستبعاده وفرض التبعية عليه، وعليه كيف يمكن إذن أن تتم عملية التثاقف بمنهج التعارف والتدافع والتحاور.. في ظل وضع محكوم بمنطق الاستعلاء والاستفراد والهيمنة لثقافات ضد أخرى.؟

1- الثقافة بين الوحدة والتعدد:

قدم إدوارد تيلور تعريفًا للثقافة في كتابه " culture Primitive "، حيث اعتبرها "ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوًا في مجتمع".[1]

وبانتقال مفهوم "Culture" إلى "Kultur" الألماني اكتسبت الكلمة مضمونًا جماعيًا، فقد أصبحت تدل على التقدم الفكري الذي يحصل عليه الفرد أو المجموعات أو الإنسانية بصفة عامة. بناءً على ذلك عالج المفكرون الألمان العلاقة بين علوم الـ "Culture" والعلوم الطبيعية. من ناحية أخرى اتجه المفكرون الإنجليز إلى النظر في التطبيقات العملية لمفهوم الثقافة في المسائل السياسية والدينية، لذلك عرّفها كلايد كلوكهون بأنها: مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معين" . وعموما فالثقافة تدل اليوم على مجموع العقائد والقيم والقواعد التي يقبلها ويمتثل لها أفراد المجتمع، ذلك أن الثقافة هي قوة وسلطة موجهة لسلوك المجتمع، تحدد لأفراده تصوراتهم عن أنفسهم والعالم من حولهم وتحدد لهم ما يحبون ويكرهون ويرغبون فيه ويرغبون عنه كنوع الطعام الذي يأكلون، ونوع الملابس التي يرتدون، والطريقة التي يتكلمون بها والألعاب الرياضية التي يمارسونها والأبطال التاريخيين الذين خلدوا في ضمائرهم، والرموز التي يتخذونها للإفصاح عن مكنونات أنفسهم ونحو ذلك .تعتبر الثقافة النمو التراكمي على المدى الطويل: بمعنى أنّ الثقافة ليست علوماً أو معارف جاهزة يمكن للمجتمع أن يحصل عليها ويستوعبها ويتمثلها في زمن قصير، وإنّما تتراكم عبر مراحل طويلة من الزمن، تنتقل من جيل إلى جيل عبر التنشئة الاجتماعية: فثقافة المجتمع تنتقل إلى أفراده الجدد عبر التنشئة الاجتماعية، حيث يكتسب الأطفال خلال مراحل نموهم الذوق العام للمجتمع[1]

أما الثقافة –حسب مالك ابن نبي فهي: "مجموع الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه.... هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"[2]. وعند محمد عابد الجابري أن الثقافة هي "ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية تشكل أمة أو ما في معناها، بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء.... إن الثقافة هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان، ومهامه وقدراته وحدوده وما ينبغي أن يعمل ومالا ينبغي أن يأمل.."[3]

يقول الجابري، إننا نقصد بـ "الرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية، تشكل أمة أو ما في معناها، بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء. إن الثقافة، بعبارة أخرى، هي "المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يأمل)[4]."ويظهر طابع الخصوصية مرة أخرى في التعريف الوارد، وهذا ما نوظفه فيما بعد في ضبط مفهوم التثاقف، وتعيين حدوده خاصة، رفعًا للإشكالات العالقة، وجوابًا عن التساؤلات المطروحة.

بما أن الثقافة تأليف وتركيب ودمج لعناصر ومكونات تصوغ في النهاية الفلسفة الأخلاقية لأية جماعة فإنها قابلة لأن تتنوع وتتعدد وتغتني في تجلياتها ومظاهرها، كما هي قابلة أيضا لأن تنفعل وتتأثر وتتفكك.. ف "الهوية الثقافية كيان يصير، يتطور، وليس معطى جاهزا ونهائيا. هي تصير وتتطور إما في اتجاه الانكماش وإما في اتجاه الانتشار، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم .. وأيضا باحتكاكها سلبا وإيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما.."[5]. أما على المستوى الكوني ف "ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام، وإنما وجدت وتوجد وستوجد ثقافات متعددة متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية أو بتدخل إرادي من أهلها على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة.."[6] وبقدر ما تملك ثقافة ما قدرة ذاتية على الانفتاح والحوار بقدر ما تساهم في عملية التثاقف الإيجابي مع الثقافات الأخرى .

إذن فالاقتدار الذاتي، والفاعلية، والحركية.. شروط لابد منها للحياة والوجود. والثقافة التي تتوحد عند أصولها المرجعية وتنفتح في تجلياتها لتستوعب كافة أشكال ومظاهر الحياة، ولتحاور الآخر وتتفاعل معه، هي التي بإمكانها أن تعيش وتؤثر وتساهم في التقويم المحلي والكوني.

2- مفهوم التثاقف

ظهر مصطلح التثاقف Acculturation لأول مرة على يد علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين الشماليين 1880 للدلالة على التغيرات في صورتها الثقافية في المجتمعات الحديثة، فالتثاقف كمفهوم مستقل تناوله العديد من الباحثين من مختلف الاتجاهات والخلفيات النظرية. لقد تناوله الأنثروبولوجيون من خلال الدراسات التي تناولت الأوضاع الثقافية عند الشعوب المستعمرة وهذا بالتركيز على التحليل الأنثروبولوجي لأثار المعتقدات و التقنيات الأوروبية والأمريكية على المجتمعات غير التابعة لها، حيث خلصت إلى انه لا يوجد في الوقت الحاضر مجتمع أو فرد ما بمنأى عن تبعات التثاقف. بينما علماء الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي فينظرون إلى هذا المصطلح على انه عملية ديناميكية و عامل أساسي من عوامل صقل و تكوين الشخصية العصرية من خلال التفاعل و التواصل مع الأخر.[7]

هذا التعدد في التناول أفرز العديد من التعاريف منها :

يعرف كل من موسكوفيتش ورالف لينتون و ريد فيلد. Linton et .Herskovits. Redfield

التثاقف بأنه : "مجموعة الظواهر الناتجة عن التفاعل المباشر و المستمر بين مجموعتين من الأفراد ذوو ثقافات مختلفة ،الشيء الذي يؤدي إلى حدوث تغيرات على الأنماط الثقافية البدائية لإحدى المجموعتين أو لكليهما ".[8]

مما تقدم يبين بجلاء بأن عملية التثاقف علاقة تكشف عن اللاتكافؤ الواضح بين ثقافة الشعوب خاصة بين ثقافة من استُغل واستُعمر ولا زال، وثقافة المستعمر القوي السيد الذي يراهن

اليوم على فكرة العولمة "كأسلوب جديد للاستعمار"، وقد أصبحت ثقافة الإنسان الغربي ثقافة قوية مهيمنة بحكم قوته الاقتصادية والتقنية والعسكرية وهذا ما تجسد مع الغزو الاستعماري بكل بلدان العالم الثالث في مطلع القرن 19 بما في ذلك العالم العربي، وابتداء من هذه اللحظة بالذات فكر الإنسان الغربي المستعمر القوي، السيد، في مسألة تنميط وتكييف ثقافة الشعوب الضعيفة والمغلوبة، على ثقافتها تحت فكرة التثاقف. وهذا ما يوضحه الأنثروبولوجي "جيرار لكلرك" في مؤلفه الأنثروبولوجيا والاستعمار قائلا: " يمكن استعمال التثاقف للإشارة إلى الأنماط التي يتم بموجبها قبول مظهر ثقافي معين في ثقافة أخرى بحيث يتلاءم ويتكيف معها مما يفترض مساواة ثقافية، بين الثقافة التي تعطي وتلك التي تتقبل، والتكيف هو السيرورة التي تتحول بموجبها عناصر الثقافة المستعمرة والمسيطر عليها نحو حالة تتلاءم مع شكل الثقافة المسيطرة".[9]

3- التثاقف تكريس للمركزية والتهميش:

استخدمت الثقافة الأوروبية عدة استراتيجيات، وهي تؤطر فكريًّا ما اعتقدته تفوقًا أوروبيًّا على كافة الحضارات والثقافات، تضمنت التنظير لتلك الرؤية، وصياغة الخطاب الذي يبرر السيطرة الأوروبية على الثقافات الأخرى، من خلال تعميم القيم والممارسات الأوروبية على «الآخر» الذي اعتُبر وصُوِّر ذا قيم وثقافة أدنى، ويستوجب تقدمه الدوران في الفلك الثقافي الغربي.

كرست الثقافة الأوروبية أسس مفهوم المركزية الغربية، وما استتبعها من تجليات، فوفقا للتصور الأوروبي المبني على نظرة ثنائية للعالم «برابرة ومتحضرون» فإن الغرب منتج القيم الإنسانية، والمحدد لمسار انتقال أي ثقافة من البربرية إلى المدنية، وهي كل الثقافات غير الغربية، وواضع معايير التقدم والتخلف.

وقد ظهر مفهوم الغرب، تمخضًا عن الحقبة الطويلة التي يصطلح عليها بالعصر الوسيط، التي طورت جملة من العناصر الاجتماعية والدينية والسياسية والثقافية، فاندمجت لتشكل هوية أوروبا، وبانتهاء تلك الحقبة ظهر المفهوم بأبعاده الدلالية الأولية، التي تمثلت في تثبيت مجموعة من الصفات والخصائص العرقية والحضارية والدينية علي أنها ركائز أساسية تشكل هويته. وأدت هذه العملية إلي ولادة مفهوم المركزية الغربية، الذي تتجلى إشكاليته في أنه يؤسس وجهة نظر حول الغرب بناء على إعادة إنتاج مكونات تاريخية، توافق رؤيته، معتبرًا إياها جذورًا خاصة به، ومستحوذًا في الوقت نفسه على كل الإشعاعات الحضارية القديمة، وقاطعًا أواصر الصلة بينها وبين المحاضن التي احتضنت نشأتها. مما يعني إقصاء لكل ما هو ليس غربيًّا، دافعًا به إلى خارج الفلك التاريخي الذي أصبح الغرب مركزه، على أن يكون مجالاً يتمدد فيه، وحقلاً يجهزه بما يحتاج إليه.[10]

ساعدت عوامل عدة، على تدشين وتثبيت الهوية الغربية الحديثة، ووضوح وتجلي مفهوم التمركز فبجانب الثورة الفكرية والعلمية، وحلول العلمية العقلية محل الرسالة الدينية، ما كرس لتمركز

«الأنا» عند الغرب الذي صار رمزًا للتحضر، بينما العالم الآخر هو رمز للتوحش والهمجية، بعد أن نابت ثنائية (حيوية أوروبا، خمول العالم) أو ثنائية (التمدن، التوحش)، فإن بداية الإعلان عن الزمن الأوروبي وتشكيل هوية محددة إعمالاً للمركزية الغربية التي ترافقها النظرة الدونية للثقافات والشعوب غير الغربية وقيمها، وثقافتها، والشعور بالتفوق لدى الذات الغربية. هذه النظرة التي تجلى تطورها في كونها أضحت مبررًا عنصريًّا بواجهة أخلاقية لتوسعات أوروبا الاستعمارية في بلاد من اعتبرتهم هوامش، مروجة خطاب المنوط بإخراجهم من الظلام والجهل وإلحاقهم بركب الحضارة، وإن كان باستخدام القوة، بكافة تمثلاتها.

ثمة منظومات فكرية صاغت أسس فكرة التمركز الأوروبي، وأصّلت له، من أجل صناعة صورة تشرع للغربي إقصاءَه للآخر وتهميشه، وتجلت في نظريات أصلت للحضارة الأوروبية بادعاء النقاء، وعدم تأثرها بأيّ حضارة أخرى غير غربية، وانعدام القيمة والتأثير المطلق للحضارات الأخرى، وقد أشار الأنثروبولوجي الفرنسي "جيرار ليكريلك"، إلى دور «النظريات التطورية» في رسم صورة عن حضارات متفرقة ومتأخرة تتقدمها أوروبا وتشكل نموذجاً يمكن تتبع خطاه، فقد كان بناء تلك النظريات أحد الطرق التي حاولت أوروبا بواسطتها أن تفهم التنوع الثقافي في العالم، الذي اعترفت به، إبان التوسع الاستعماري. ففي إطار مقاربة كهذه يمكن ترتيب المجموعات البشرية تبعًا لخط زمني طويل يمثل في الوقت نفسه سلمًا للتقدم، بحيث يظهر هذا الخط الإنسان وقد انتقل من حالة التوحش إلى البربرية، ثم إلى المرحلة المتحضرة. وإذا قدر لكل المجتمعات أن تتقدم تبعًا لهذا الخط، فإن بعضها كان أكثر «تقدما» من البعض الآخر، بعضها يقود السباق، وبعضها الآخر يشكل جزءًا من المتبارين، وثمة بعض ثالث يسير في ذيل المتبارين. وهنا، تحتل أوروبا وبشكل طبيعي، كليًّا، موقعًا يجعلها رأس الحضارة (إنها الحضارة بامتياز) أما «الحضارات الأخرى» (العربية، الهندية، الصينية...) فقد كانت أكثر «تأخرا». وفي النهاية فإننا نصادف مجتمعات متوحشة أو «بدائية» لا حق لها بأن يطلق عليها صفة «المتحضرة»، وتاليًا فإنه لابد لها أن تكتفي بموقع صاحبة «ثقافات»[11].

الزعم الأوروبي بإمكانية تصنيف المجتمعات الإنسانية، والحضارات والثقافات الأخرى، تبعًا لتقدمها على سلم التقدم الثقافي والاجتماعي، الممثل في الحضارة والحداثة الأوروبية، استند إلى مبادئ العقلانية والعلمانية، التي رسختها فلسفة الأنوار التي انطلقت في أوروبا في القرن الثامن عشر، ومثّلت مرجعًا تأسيسيًّا للفكر الغربي الحديث، وشكلت منعطفًا تاريخيًّا تحكم في مجمل الإنتاج المعرفي الغربي والعالمي حيث أحدثت قطيعةً معرفيةً مع النسق المعرفي الذي كان سائدًا غربًا، كانت ضروريَّةً للخروج من أفق التخلف والدخول في مسالك النهضة، فعملت على تعميم نموذجها باعتباره نموذجًا كونيًّا يصلح في كل زمان ومكان؛ وتشكلت مركزية غربية عنصرية تمثلت باحتقار

الثقافات والشعوب الأخرى، وخصوصًا الشرقيّة منها، وبدت الممارسة الاستعمارية أكثر وضوحًا مما كانت تتخفى خلفه من المثل العليا للأنوار فانقلب العقل إلى اللاعقل، والعدل والمساواة إلى الاستبداد، وزحفت أوروبا إلى العالم لفرض هيمنتها وسيطرتها بذرائع تحرير العالم وتمدينه، وفق أيديولوجيا الاستعمار[12] .

4- التثاقف كنموذج للاستيلاب الحضاري:

إن الحديث عن طبيعة التثاقف في العصر الحديث، يجعلنا نستشعر خللاً في العملية التي يفرض فيها القويُّ ثقافته بجميع تجلياتها، بوصفها الطريق الأوحد للرقي ولدخول بوابة العصر، لذلك نجد أن هناك ثمة تعامل عربي غير نقدي، وغير واعٍ، مع النظريات الغربية، غيّب خصوصية المجتمع العربي المسلم. وكشفت بعض الكتابات عن أنّ هناك وهْماً يُدعى كونية النظرية وعالميَّتَها؛ إذ تغدو النظرية، التي صاغها الغرب (المركز)، وعاءً لكل الأنظمة المعرفية، بغض النظر عن الاختلافات بين الشعوب في المجالات الثقافية والمعرفية والاجتماعية، إلخ، مما يوحي بفكرة أن ليس للمجتمعات نماذج معرفية خاصة بها. وردا على هذا التصوّر الفوقي، نشأ في السياق العربي الإسلامي خطاب فكري حاول أن ينقد مشاريع الحداثة وما بعد الحداثة، بل ودعا هذا الخطاب إلى بناء حداثة عربية إسلامية تتسق وهوية الأمة. ونستطيع أن نطلق على هذا النوع من الخطابات الخطابَ الثقافي المُتجاوِز، الذي يتطلب إدراكاً صحيحاً وواعياً لمعطيات التطور التاريخي، ونظرة موضوعية تجاه الذات، واستثماراً للطاقة النفسية والفكرية؛ لتشريح الواقع ورصد مكوناته، وذلك من أجل النهوض بالعمل الثقافي والمعرفي؛ أفقياً من أن يكون تعبيراً عن معارف عامة، إلى أن يغدو نشاطاً إبداعياً؛ وعمودياً من أن يكون أداة تثقيف، إلى أنّ يصبح أداة وَعْي. ولعلَّ هذا يفرض علينا تفحّص المنطلقات والآليات التي ينبغي توفرها في بنية المثاقف حتى يستطيع القيام بفعل المثاقفة دون شعور بالدونية أو الاستلاب.[13]

بالنسبة للشرق العربي والإسلامي، اتضح الخطاب الغربي المتمركز حول ذاته في الكتابات الاستشراقية التي قدمت صورة نمطية للشرق في المتخيل الغربي، فلم يستطع النشاط الاستشراقي التحرر من مضامينه الغربية في قراءاته، وانطلق المستشرق من أرضية ثقافته الخاصة، بإسقاطات غير عادلة عند التناول والتقييم، ومن منطلقات الفكر الأوربي نفسه في مراحل تفوقه [14].

وفي هذا السياق تطرق إدوارد سعيد في كتابيه «الاستشراق» و«تعقيبات على الاستشراق» إلى أسس التفكير الغربي تجاه العرب والمسلمين، وبيّن أن الغرب تشكل وعيه تجاه الشرق على أساس الاستشراق فذكر أن الدارسين الأوروبيين قاموا بوصف الشرقيين بأنهم غير عقلانيين وضعفاء ومخنثين، على عكس الشخصية الأوروبية العقلانية والقوية والرجولية. واعتبر سعيد أن موطن الضعف الأساسي في خطاب الاستشراق هو التحيز الأيديولوجي الغربي ضد المسلمين، كانعكاس

للإمبريالية الثقافية الأوروبية.

على ذلك، يمكن القول بأن الغرب روج لمعرفته عبر خطاب خدم أهدافه ومصالحه، كرس صورة للآخر غير الغربي، وثقافته وعناصرها، تستدعي ضرورة الدوران في فلك التطور والمعرفة الغربيين، كمكونات للتجربة الغربية، التي اعتبرت النموذج الأوحد والأمثل للتقدم الإنساني[15] .

إن التبعية الثقافية؛ التي تعني نمط العلاقة الذي يجعل بعض الثقافات تعتمد اعتماداً بنيوياً في إنتاج القيم والمعاني والأفكار والمعارف على ثقافات أخرى، فهي إلغاء لهوية المثقف وذاتيته، وهي رغبة ذاتية وانحياز طوعي للآخر؛ إذ تُمثّل استلاباً ثقافياً وقابلية للاستعمار أو العقل الكَلّ على حد قول مالك بن نبي. لقد أسهمت الحداثة وما بعد الحداثة في إنشاء تصوّر عربي يكاد يتماهى مع التصورات الغربية للوجود. ولعل من أبرز الأخطاء المعرفية والمنهجية التي أصابت العقل (العربي) والعقل (الإسلامي) التماهي مع النظريات المعرفية والفكرية والفلسفية والأدبية واللغوية... ذات البناء المعرفي المغاير للبناء المعرفي الإسلامي، فلم يمارس المنادون بالتجديد فِعْلَهم بناء على خصوصيتهم التاريخية والمعرفية، بقدر ما أعادوا إنتاج أنماط ثقافية جديدة كما حصل مع تاريخ غيرهم؛ مقلدين أدواره وأطواره كما يرى طه عبد الرحمن. وأدّى هذا الخلل في الرؤية إلى مجانبة الصواب في قراءة تراث الأمة من جهة، وإلى عدم الوعي بالخصوصيات الثقافية والحضارية والاجتماعية لتلكم النظريات، والأسس الفلسفية والمعرفية التي قامت عليها. وحدث بذلك مسخ للهوية أدّى إلى قطيعة مع الأصل، وإلى قطع الذات عن العلاقات الفطرية ومجالاتها الحيوية، وإلى انسلاخ الإنسان عن ذاته وذاكرته، ضمن محور يحاول محو الذاكرة الحضارية وقطع النفس عن ذاكرتها التراثية.

والملاحظ دائما هو غياب ذلك الإيمان والإقرار في الخطاب الاستعماري بالمساواة، ولا بالشراكة الإنسانية في القيم العامة، وتقوم فرضيته على ثنائية ضدية، كما يذهب الباحث العراقي، عبد الله إبراهيم فالمستعمِر ممثل الخير وسمو المقام والرفعة الأخلاقية والتقدم، أما المستعمَر فمستودع للشر والانحطاط والدونية والتخلف، ولا سبيل إلى لقاء بينهما إلا حينما يدرج المستعمَر كتابعٍ للمستعمِر، فربما جرى تعديل وضعه، لكنه لن يكتسب السوية البشرية الطبيعية، فيكون بذلك مثل العبد الذي يحاول تقليد سلوك سيده لكنه لن يتبوأ رتبة السيادة، فعبوديته تبقى هي المانحة لقيمته. وكذلك الأمر في سوق التداول الاستعمارية حيث تكون التبعية علامة امتثال بها تتحدد قيمة التابع.[16]

ما الجدل حول التجانس الثقافي والتنوع الثقافي، وتبني خطاب الاختلاف الثقافي لفتح مسارات جديدة للمجتمع العالمي، ولتشارك دول الشمال والجنوب في إنتاج ثقافة بديلة، والترويج لزوال فكرة المركز والهوامش، فيقتضي مقاربة لمفهوم الاختلاف لدى منظري العولمة، وتبعات التجانس المنشود على أساسه.

من منظور الغربيين، أصحاب مدرسة التنوع الثقافي للعولمة، فإن الاختلاف والاختلاط بين الثقافات يفترض مقاومة أفكار النقاء الثقافي، والثقافات الأصلية الموحدة، وزعزعة مفهوم الثقافة التقليدي الذي . من وجهة نظرهم حبس الهوية الثقافية في دائرة العرق الحتمية، بوضعه حدودًا واضحةً أو »سياجًا وهميًّا» يحيط بكل ثقافة، وأن كل من يقعون داخل هذه الثقافة متفقون ومشتركون، في الوقت الذي تشير الدراسة والملاحظة إلي الاختلافات والانقسامات في أساليب الحياة. فتلك النظريات تدعو إلى الاحتفاء بالتنوع الثقافي والاختلاط والتداخل الثقافي في عصر العولمة، وترفض نموذج المركز والأطراف، متجاهلة توزيع القوة والسلطة في النظام العالمي.[17]

تقول الباحثة الفرنسية "ماري تريز" في قراءتها لخطاب ما بعد الحداثة، من منظور ما بعد كولونيالي أن الفكر، (الذي انبثق عنه خطاب العولمة)، ينزع إلى إذابة الاختلافات بتجاوز الحدود والهوامش بوصفها حواجز مصطنعة، سوف تأتي بنتيجة عكسية. فتقبل الاختلاف في كافة أشكاله دون تمييز قد يفضي إلى تحويله إلى نموذج معمم في محاولة للتوصل إلى مفهوم للعالمية يتأسس على الاختلاف، مما يعني تأكيده دون محاولة التعرف عليه، أو التداول معه. وفي تأكيد الاختلاف ما ينذر بعهد جديد من الكولونيالية المستترة، تتخفى وراء خطاب فكري معكاس لخطاب الكولونيالية، الذي اتخذ من نشر الحداثة الغربية ذريعة للفصل بين العالم المتمدين والآخر المتخلف لإضفاء صفة الشرعية على تطلعات الغرب الاستعمارية. ففي مواجهتها للحداثة الغربية بتوجهاتها الإمبريالية، وخطاب المركزية عالجت ما بعد الحداثة الخطأ بمثله بخلق نظام عالمي جديد؛ لمواجهة نظام عالمي سابق، وكأنها تحارب الشمولية بمثيلتها. إلا أنها ساعدت على إقامة عولمة شمولية بديلة، ينبغي نقضها بمؤازرة العناصر المقاومة لرأس المال الثقافي على حد تعبير "بيار بورديو" [18].

لقد اقتضت خطة التجانس العالمي، أن تصبح شروط السوق مقياسًا معقولاً مُعدًّا داخل أشكال الحياة في الأطراف، وآلية ذلك التدفق الثقافي، ونشر أنساق فكرية، وسلع ثقافية عابرة للقوميات، بل وهيمنتها عبر التكتلات الكبرى التي تضطلع بمهمة الثقافة في النظام العالمي، التي لا تهتم بجودة تلك السلع ولكن بحجم ما تحققه من مصالح، وهذا بالضرورة يأتي على حساب الثقافات المحلية، فهذه السلع لا تعبأ بأيّ تمايزت ثقافية لسكان الأطراف »المستهلكين» لتلك الثقافة، المنتمية إلى أسس غربية في أساسها، والقادرة على الاختراق والتأثير بحكم امتلاك المركز مقومات تفوقها لجهة الإغراق الثقافي.

إن التصورات الخاصة بالمستقبل الثقافي في عالم اليوم، الذي يموج بالتفاعل والتبادل الثقافي المتواصل ليس فحسب من الزوايا الثقافية والاقتصادية، كما كان الحال في المرحلة الكولونيالية، وإنما أيضًا من زاوية بنائه الثقافي، العالم الذي لا يشكل قرية عالمية تتسم بالمساواة، بل هو ليس سوى صرح مبني بصرامة، دونما تناسق أو تماثل بين المركز والأطراف، يذهب "أولف هانرز" في تصوره

لسيناريو تحقيق التجانس العالمي للثقافة إلى أنه يجري التصوير الخطابي للتهديد القاتل للإمبريالية الثقافية باعتباره يضم ثقافة التكنولوجيا العالمية، إضافة إلى المساندة التنظيمية القوية في مواجهة ثقافة شعبية صغيرة لا حول لها ولا قوة، ولكن «الإمبريالية الثقافية»، كما أصبح واضحًا، تمتلك علاقات بالسوق تزيد عن علاقاتها بالإمبراطورية. ويعمل المحرك الرئيسي المزعوم لعملية التكرار البشري العام للاتساق في الرأسمالية الغربية السابقة على الدوام على إغراء مزيد من المجتمعات نحو الاعتماد على أهداب المجتمع الاستهلاكي، عالمي النطاق، الآخذ في الاتساع. وتحقيق التجانس ينتج أساسًا عن طريق تدفق الثقافة كسلعة من المركز نحو الأطراف، ووفقًا لهذه الرؤية فإن الثقافة العالمية المتجانسة الوافدة سوف تكون على وجه العموم، صيغة من الثقافة الغربية المعاصرة، وعندئذ سيظهر فقدان الثقافة المحلية بشكل متمايز عند الأطراف التي تعتبر غير فاعلة في مسار الثقافة العالمية[19].

خاتمـــة:

مما تقدم يمكننا القول أن عمليةَ التثاقف من المنظور الغربي تحدث خللا كبيرا يؤثر في البناء الثقافي والمعرفي لكثير من المجتمعات في مرحلة ما بعد الكولونيالية، ولهذا أسباب متنوعة: داخلية وخارجية؛ ذاتية وموضوعية؛ لحظية وتراكمية، إلخ. وقد يؤدي هذا الخلل إلى عدم وضوح هوية المجتمع وماهيته، وإلى حدوث ما يُسمى بالارتباك الثقافي. ولعل من أهم أسباب هذا الارتباك عدم تحديد مرجعية الخطاب الثقافي، لا سيما في ظل صراع قيمي ثقافي سُخّرت له أحدث التقنيات، فغدا هذا الخطاب لعدد غير قليل من المجتمعات، صدىً لغيره من الخطابات الثقافية المركزية (أوروبا وأمريكا)، على الرغم من اختلاف بنية النظام المعرفي لكل ثقافة من الثقافات.

وبات من الضروري للمجتمعات العربية أن تحمل خطابا ثقافيا، يتسق مع هوية الأمة، خاصة وأنها تملك نظاما معرفيا واضحا يحدد رؤية الإنسان للإله والإنسان والعالَم، وتنعكس معالم هذا النظام المعرفي على مجالات الحياة كلها. وكان لهذا الوضوح دور كبير في المحافظة على تماسك الأمة والمجتمع وإبقاء هويتها واضحة المعالم على مر العصور. لذلك فإنَّ نجاح الواقع الثقافي على استيعاب هذا التحول والمنعطف الخطير وتجاوزه يعتمد على قدرة هذه المجتمعات على تمثّل هوية مجتمعه، وإحداث الاتساق الثقافي؛ إذ يتحقق هذا الاتساق إذا كانت وجهتا الأفراد السلوكية والثقافية متناغمتين، فتكون أركان الثقافة كلها متجهة وجهة واحدة لا تتناشز ولا تتناقض.

إنّ عدم الاتساق الثقافي والتنافر في عناصر الخطاب الثقافي يؤدي إلى ضعف ثقافة المجتمع ويهدد كيانه ووجوده. وبناء عليه ينبغي للخطاب الثقافي أنّ يتجاوز تلك الرؤى التي كانت تنادي بنظريات الإزاحة والإحلال؛ إن استلهام الواقع الحضاري الأول للمسلمين لا يعني التغني بإنجاز مجيد، كلما شعرنا بمرارة التخلف عن مواكب الإبداع، والعجز عن التجديد والاختراع، بل إن ذلك

الاستلهام هو تذكير بالطاقات الكامنة واستنهاض للهمم الطموحة، واتصال بتراث الماضي مع ذلك كله لا ينظر إليه بمنظار القداسة المزيفة ولا يستعصي على جهود المراجعة، بل هو جهد بشري واجتهاد ظرفي، يستقيم وينحرف ويخطئ ويصيب، ولذلك فإنه يخضع للنقد والتمحيص، فكما أن فيه أفكاراً حية يلزم بقاؤها، فإن فيه أفكاراً ميتة يلزم إنهاؤها، وأفكاراً قاتلة يلزم اقتلاعها. المهم في كل ذلك هو النظر إليه برؤية منهجية.

أما استيعاب الخبرة البشرية المعاصرة، فهي ليست استجداءً ثقافيا، ولا سطواً علمياً لبراءات المبدعين وإنما هو طلب للعلم وسعي للتعلم وابتغاء للحكمة حيثما وجدت، ونمواً في الخبرة وإذا كان هذا فهمنا للاستلهام والاستيعاب، فإنَّ فهمنا للتجاوز يقوم على تحقيق "القفزة الإبداعية" التي تأخذ قوتها من طاقة التكامل المعرفي بين عناصر الهوية ومرجعياتها، من جهة، والتسلح بأفضل ما يتوفر من علوم العصر وأدواته ومهاراته، من جهة أخرى؛ ليس ركضا خلف من تقدموا، طمعا باللحاق، وإنما قفزاً إلى المقدمة.

الهوامش:

1. كوش دونيس مفهوم الثقافة في العلوم الإجتماعية، ترجمة: منير السعيداني، مراجعة: طاهر لبيب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2007، ص، 30
2. المرجع نفسه، ص، 31.
3. مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين– دار الفكر ، ط 4، بيروت، 1986 ، ص،13.
4. محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية .. عشر أطروحات. مجلة المستقبل العربي ع: 228 1998، ص، 14
5. محمد عابد الجابري، نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط2، 1982، ص، 22
6. سيرج لاتوش: تغريب العالم، ترجمة خليل كلفت. نشر ملتقى تانسيفت. ط 2 – البيضاء 1999 ، ص، 49.
7. روجيه غارودي: من أجل حوار بين الحضارات، ترجمة: ذوقان قرطوط، دار النفائس ط 1، بيروت، 1990، ص، 266.
8. BRAMI. A**: L'acculturation ; étude d'un concept**, DESS, No121, Paris. France. 2000, pp 54
9. رالف لنتون، الأصول الحضارية للشخصية، دار اليقظة، بيروت، 1964، ص ص، 13–15.
10. جيرار لكليرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة: جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط2 ،1990، ص87. بيروت، 1990، ص، 87.
11. س. لاتوش: تغريب العالم. ص: 137.

12. ديس هاني، العرب والغرب.. أية علاقة.. أي رهان؟ عرض: عبد الرحمن الوائلي، مجلة الكلمة، العدد 23، مارس، 1999 http://www.kalema.net/v1/?rpt=388&art

13. غزلان هاشمي، التحيز الأيديولوجي في التمثيلات الخطابية الغربية، مركز أسبار للدراسات والبحوث والإعلام، http://www.dalilalkitab.net/?id=401.

14. نبيل علي صالح، مقاربة في المشروع الثقافي والحضاري الإسلامي: تحدّيات الحاضر وآفاق المستقبل، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 2014/6/25 : http://www.mominoun.com

15. وليد محمود عبد الناصر، الحالة الراهنة للعولمة ومسألة الهوية الثقافية، نبيل علي صالح، مرجع: http://www.arabworldbooks.com/Articles/articles66.ht

16. أولف هانرز، سيناريوهات ثقافات الأطراف، في: الثقافة والعولمة والنظام العالمي، تحرير أنطوني كينج، ترجمة: شهرت العالم وهالة فؤاد ومحمد يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 2005، ص 161 . 162.

17. نفس المرجع، ص 163.

18. نفس المرجع، ص، 164.

19. كمال عبد اللطيف، نقد المركزية الثقافية الغربية، العربي، الكويت، عدد 439، 1995: http://www.arabphilosophers.com